بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن
رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ
إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ
أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم
بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ الحزب ٥١
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

٥٠٧

سورة محمد

معانى الكلمات :

صدوا : منعوا .

أضل : أعماهم.

كفَّر : أزال .

بالهم : حالهم .

أثخنتموهم : هزمتموهم .

فشدوا : فقيدوا .

تعساً : هلاكا .

أحبط : أبطل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم حقيقة الكافرين والمؤمنين .

٢ ـ أن نتعرف على حكمة القتال وتكريم الشهداء .

٣ ـ أن نقف على مصارع الغابرين ودمار الكافرين .

المحتوى التربوى :

تبدأ السورة ببيان حقيقة الذين كفروا وحقيقة الذين آمنوا فى صيغة هجوم أدبى على الذين كفروا ، وتمجيد كذلك للذين آمنوا مع إيحاء بأن الله عدو للأولين ولىّ للآخرين ، وأن هذه حقيقة ثابتة فى تقدير الله سبحانه ، فهو إذن إعلان حرب منه تعالى على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظ الأول فى السورة ، والافتتاح يمثل الهجوم بلا مقدمة ولا تمهيد ، وإضلال الأعمال الذى يواجه به الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، سواء صدوا هم أم صدوا وصدوا غيرهم ـ يفيد ضياع هذه الأعمال وبطلانها ، وهذه الأعمال التى أضلت ربما كان المقصود منها بصفة خاصة الأعمال التى يأملون من ورائها الخير .

يقول صاحب الظلال : « لا قيمة لعمل صالح من غير إيمان ، فهذا الصلاح شكلى لا يعبر عن حقيقة وراءه ، والعبرة بالباعث الذى يصدر عنه العمل لا بشكل العمل .. فلابد من الإيمان

ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه فى كل اتجاهاتها وتتأثر به فى كل انفعالاتها ، وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه » .

وفى الجانب الآخر الذين آمنت قلوبهم وسرائرهم ،و انقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم وآمنوا بما جاء به محمد ﷺ وإلى جانب هذا الإيمان المستكن فى الضمير العمل الظاهر فى الحياة ، وهؤلاء تغفر لهم سيئاتهم ، وتصلح أحوالهم ، وإصلاح البال نعمة كبرى تلى نعمة الإيمان فى القدر والقيمة والأثر ، ومتى صلح البال استقام الشعور والتفكير ، واطمأن القلب والضمير ، وارتاحت المشاعر والأعصاب ، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام ، وماذا بعد هذا من نعمة أو متاع ؟ !

وهذا كله ليس محاباة ولا مصادفة إنما هو أمر له أصله الثابت المرتبط بالحق ، وجعل الحق هو الأساس والباطل ليست له جذور ضاربة فى كيان هذا الوجود ،ومن ثم فهو ذاهب هالك، وكل من يتبعه ، وكل ما يصدر عنه ذاهب هالك كذلك ، والحق ثابت تقوم عليه السموات والأرض وتضرب جذوره فى أعماق هذا الكون ، ومن ثم يبقى كل ما يتصل به ويقوم عليه ، وكذلك يضع لهم القواعد التى يقيسون عليها أنفسهم وأعمالهم .

وينتقل السياق مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين ، فاللقاء المقصود هنا هو اللقاء للحرب والقتال لا مجرد اللقاء ، وضرب الرقاب المأمور به عند اللقاء يجىء بعد عرض الإسلام عليهم وإبائهم له طبعا ، والإثخان شدة التقتيل حتى تتحطم قوة العدو وتتهاوى ، فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع ، وعندئذ يؤسر من استأسر ويشد وثاقه ، ثم بعد انقضاء الحرب وإنفصال المعركة يتم التخيير فى أمرهم ، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه ، أو فى نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين .

الذين كفروا ، فهو ـ سبحانه ـ قادر على أن يقضى عليهم قضاء مباشراً ، وإنما هو ابتلاء الله لعباده بعضهم ببعض ، والله لا يكلف الذين آمنوا هذا الأمر ولا يفرض عليهم هذا الجهاد ؛ لأنه يستعين بهم ـ حاشاه ـ على الابتلاء الذى تقدر به منازلهم ، فالذين كفروا وصدوا عن سبيل الله الذين يظهرون فى ثوب البطش والاستكبار حفنه من الخلق لا تساوى شيئاً فى ميزان الله إنما يتخذ الله المؤمنين ستاراً لقدرته ، ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرة ، ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير وهو يبتليهم ويربيهم ويصلحهم ، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار .

ومن ثم يكشف عن مصير الذين يقتلون فى سبيل الله ، فلن يضل أعمالهم ، فهى أعمال مهتدية واصلة مربوطة إلى الحق الثابت الذى صدرت عنه ، وانبعثت حماية له واتجاها إليه ، وهى باقية من ثم لأن الحق باقٍ لا يهدر ولا يضيع ، ويظل يتعهدهم الله بالهداية بعد الاستشهاد ويتعهدهم

بإصلاح البال ، فهى حياة مستمرة ، ويحقق لهم الله ما وعدهم بإدخالهم الجنة فيرى الشهيد مقعده من الجنة .

وفى ظل هذه الكرامة للذين قتلوا فى سبيل الله يحرض الله المؤمنين على التجرد لله ،و الاتجاه إلى نصرة نهجه فى الحياة ، ويعدهم على هذا النصر والتثبيت فى المعركة ، والتعس والضلال لأعدائهم وأعدائه وقضاء بالخيبة والخذلان ، وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء ، وذلك جزاء الكراهية التى تعتمل فى قلوبهم وتختلج فى نفوسهم لما أنزل الله .

ثم يلوى أعناقهم إلى مصارع الغابرين قبلهم فى شدة وعنف وهى لفتة عنيفة مروعة فيها ضجة وفرقعة وفيها مشهد للذين من قبلهم يدمر عليهم كل ما حولهم وكل ما لهم ، فإذا هو أنقاض متراكمة ،و إذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة ، وذلك المشهد الذى يرسمه التعبير مقصود بصورته هذه وحركته والتعبير يحمل فى إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقعته فى أنقاض وتحطمه مشهد التدمير والتحطيم والردم يلوح للحاضرين من الكافرين ، ولكل من يتصف بهذه الصفة بعد بأنها فى انتظارهم هذه الوقعة المدمرة التى تدمر عليهم كل شىء وتدفنهم بين الأنقاض .

وتفسير هذا الأمر الهائل المروع الذى يدمر على الكافرين وينصر المؤمنين هو القاعدة الأصيلة الدائمة ، فالله مولى الذين آمنوا ، ومن كان الله مولاه وناصره فحسبه ، وفيه الكفاية والغناء ، وكل ما قد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير، لا تخليا من الله عن ولا يته له ، ولا تخلفا لوعد الله بنصر من يتولاه من عباده ، ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له ، ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء ، فهو فى النهاية مضيع عاجز ، ولو تجمعت له كل أسباب الحماية وكل أسباب القوة التى يعرفها الناس ، فلا يبلغ هؤلاء ومن وراءهم من الأتباع ، بل لا يبلغ أهل هذه الأرض كلها أن يكونوا أنمالا صغيرة ، لا بل لا يبلغون أن يكونوا هباء تتقاذفه النسمات ، لا بل إنهم لا يبلغون شيئا أصلا حين يقفون أمام قوة الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا قيمة للعمل الصالح بغير إيمان .

٢ ـ صلاح البشرية لن يكون إلا بأيدى مجاهدين أشداء .

٣ ـ لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف أن تكون كلمة الله هى العليا وأن تهيمن شريعته ومنهاجه فى ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم .

الجزء السادس والعشرون — سورة محمد

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ
وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ
ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ
مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ
ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ
يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ
وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ
وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ
حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ
ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا
ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ
ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴿١٨﴾ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ
وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾

٥٠٨

معانى الكلمات :

مثوى : دار إقامة .

بينة : بصيرة .

آسن : متغير الرائحة .

حميماً : شديد الحرارة .

آنفا : الآن .

بغتة : فجأة .

أشراطها : علاماتها .

متقلبكم : متصرفكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على نصيب المؤمنين ونصيب الكافرين من المتاع .

٢ ـ أن نستشعر خطورة المنافقين .

٣ ـ أن نعلم موقف المنافقين إزاء شخص رسول الله ﷺ .

المحتوى التربوى :

يوازن السياق بين نصيب الذين آمنوا ونصيب الذين كفروا من المتاع بعدما بين نصيب هؤلاء وهؤلاء فيما يشتجر بينهم من قتال ونزال مع بيان الفارق الأصيل بين متاع ومتاع ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون فى الأرض أحيانا من أطيب المتاع ، ولكن الموازنة هنا إنما تقوم بين النصيب الحقيقى الضخم للمؤمنين ـ وهو نصيبهم فى الجنة ـ والنصيب الكلى للكافرين الذى لا نصيب لهم سواه .

ونصيب المؤمنين يتلقونه من يد الله فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ،فالله هو الذى يدخلهم، وهو إذن نصيب كبير علوى رفيع ، وهم ينالونه من بين يدى الله فى علاه جزاء على الإيمان والصلاح متناسقا فى رفعته وكرامته مع الارتفاع المنطلق من الإيمان والصلاح ، ونصيب الذين

كفروا متاع وأكل كما تأكل الأنعام وهو تصوير زرى ، يذهب بكل سمات الإنسان ومعالمه ، ويلقى ظلال الأكل الحيوانى الشره ، والمتاع الحيوانى الغليظ بلا تذوق ، وبلا تعفف عن جميل أو قبيح ، والفارق الرئيسى بين الإنسان والحيوان أن للإنسان إرادة وهدفا وتصوراً خاصا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة المتلقاه من الله خالق الحياة فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه ، وأهم المزايا التى من أجلها كرمه الله .

وتعترض سلسلة الموازانات بين الذين آمنوا والذين كفروا لفتة إلى القرية التى أخرجت الرسول ﷺ فى تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة فى تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء ، فإذا كان الله قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم ، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء ، فما ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والآخرة ؟

ثم يمضى السياق فى الموازنة بين حال الفريقين ؛ فالذين آمنوا على بينة من ربهم ، رأوا الحق وعرفوه ، واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم فتلقوا عنه ، وهم على يقين مما يتلقون ، والذين كفروا زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا وهو سيئ ولم يروا ولم يستيقنوا ، واتبعوا أهواءهم بلا ضابط يرجعون إليه ، ولا أصل يقيسون عليه ، فهؤلاء ليسوا كهؤلاء إنهم يختلفون حالا ومنهجا واتجاها فلا يمكن أن يتفقوا ميزانا ولا جزاء ولا مصيرا .

وهذه صورة من صور التفرقة بين هؤلاء وهؤلاء فى المصير ؛ فالجنة التى وعد بها المتقون ، فيها أنهار من ماء لا يتغير ، وأنهار من لبن فى غاية البياض والحلاوة والدسومة ، وأنهار من خمر ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا ، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ، وأنهار من عسل مصفى فى غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح ، ولهم فيها ما يشتهون من الثمرات ، ولن يكون المتقون كمن يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ،و جزاؤهم يكون ماء حميما ساخنا يقطع الأمعاء التى كانت تحش وتلتهم الأكل كالأنعام .

وينتقل السياق إلى موقف المنافقين إزاء شخص رسول الله ﷺ ، وحركة النفاق حركة مدنية لم يكن لها وجود فى مكة ؛ لأنه لم يكن هناك ما يدعو إليها ، فالمسلمون فى مكة كانوا فى موقف المضطهد الذى لا يحتاج أحد أن ينافقه ، والمنافقون فى بلادتهم وقلة فهمهم كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ يستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئا ، فإذا خرجوا من عنده سألوا أهل العلم عما قاله رسول ﷺ فقلوبهم مطموسة مغلقة ، كما يدل سؤالهم على الغمز الخفى اللئيم إذ يريدون أن يقولوا : إن ما يقوله محمد لا يفهم أولا يعنى شيئا يفهم ، وقد يعنون السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد ﷺ وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه ، وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين .

ذلك حال المنافقين أما حال المهتدين فهو على النقيض ، وترتيب الوقائع فى الآية يستوقف النظر فالذين اهتدوا بدؤوا هم بالاهتداء ، فكافأهم الله بزيادة الهدى ، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل بأن آتاهم تقواهم ، والتقوى حالة فى القلب تجعله ـ أبداً ـ واجفا من هيبة الله شاعراً برقابته ، وهى مكافأة يؤتيها الله من يشاء من عباده ، حين يهتدون هم ويرغبون فى الوصول إلى رضا الله .

ومن ثم يعود بعد هذه اللفتة إلى الحديث عن أولئك المنافقين المطموسين الغافلين ويذكرهم بما ينتظر الناس من حساب وجزاء ، فهل ينتظرون إلا الساعة فقد وجدت علاماتها والرسالة الأخيرة أضخم هذه العلامات ، وما عاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذه الساعة بغتة حيث لا يملك صحواً ولا ذكراً .

ثم يتجه الخطاب إلى الرسول ﷺ ومن معه من المهتدين المتقين المتطلعين ليأخذوا طريقا آخر ، طريق العلم والمعرفة والذكر والاستغفار ، والشعور برقابة الله وعلمه الشامل المحيط ، ويعيشوا بهذه الحساسية يرتقبون الساعة وهم حذرون متأهبون ، وهو التوجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التى يقوم عليها أمر النبى ﷺ ومن معه ، وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها فى الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى بالاستغفار للذنب، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكن هذا واجب العبد المؤمن الشاعر الحساس الذى يشعر ـ أبداً ـ بتقصيره مها جهد ، ويشعر ـ وقد غفر له ـ أن الاستغفار ذكر وشكر على الغفران .

واللمسة الأخيرة فى هذا التوجيه إلى أن الله يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليلكم ، حيث يشعر القلب المؤمن بالطمأنينة وبالخوف جميعا ، الطمأنينة وهو فى رعاية الله حيثما تقلب أو ثوى ، والخوف من هذا الموقف الذى يحيط به علم الله ويتعقبه فى كل حالاته ، ويطلع على سره ونجواه ، إنها التربية : التربية باليقظة الدائمة والحساسية المرهفة ، والتطلع والحذر والانتظار ، والتحرج من أن يرى الله عبده المؤمن على هيئة أو فى حالة لا يرضاها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ للإنسان إرادة وهدف وتصور خاص للحياة يقوم على أصولها المتلقاة من الله خالق الحياة، وهذا هو الفارق بين الإنسان والحيوان .

٢ ـ بالإيمان والعمل الصالح يكسب المسلمون الدنيا والآخرة .

٣ ـ من صفات المسلم التربية باليقظة الدائمة والتطلع والحذر والانتظار والشعور بمراقبة الله.

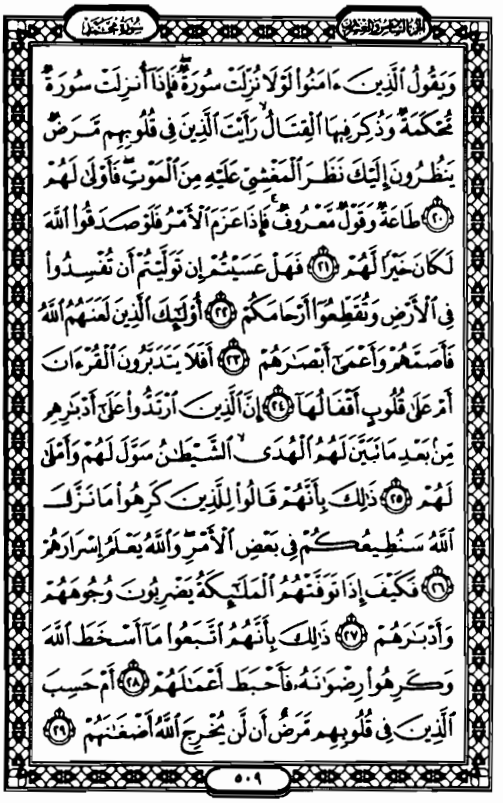

الجزء السادس والعشرون — سورة محمد

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ
مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ
﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ
أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم
مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ
لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ
ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ
﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ
وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ
ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾

٥٠٩

معانى الكلمات :

محكمة : صريحة ظاهرة الدلالة .

المغشى : من أصابته الغشية والسكرة .

أولى : أقرب .

لعنهم : أبعدهم .

يتدبرون : يتفهمون .

ارتدوا : رجعوا .

سوّل : زين .

أملى لهم : منّاهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على موقف المنافقين من الجهاد .

٢ ـ أن نعلم أن التآمر مع اليهود والأعداء هو حال المنافقين .

٣ ـ أن نعلم أن طبيعة النفاق لا تقوى على التستر الطويل .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق إلى تصوير موقف المنافقين من الجهاد ، وما يعتمل فى نفوسهم من جبن وخور وذعر وهلع عند مواجهة هذا التكليف ، ويكشف دخيلتهم فى هذا الأمر كما يكشف لهم ما ينتظرهم لو ظلوا على هذا النفاق ، ولم يخلصوا ويستجيبوا ويصدقوا الله عندما يعزم الأمر ويتحتم الجهاد ، وتطلع الذين آمنوا إلى تنزيل سورة : إما أن يكون مجرد تعبير عن شوقهم إلى سورة جديدة من هذا القرآن الذى يحبونه ويجدون فى كل سورة منه زاداً جديداً حبيبا ، وإما أن يكون تطلعا إلى سورة تبين أمراً من أمور الجهاد، وتفصل فى قضية من قضايا القتال تشغل بالهم ، فإذا أنزلت سورة فاصلة بينة لا تحتمل تأويلا وذكر فيها الأمر بالقتال ، أو بيان حكم المتخلفين عنه أوأى شأن من شؤونه، إذا بأولئك الذين فى قلوبهم مرض يفقدون تماسكهم ، ويسقط عنهم

ستار الرياء والذى يتسترون به، وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف، ويرسم القرآن صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان ولا بفطرة صادقة ، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر .

وبينما هم فى هذا التخاذل والتهافت والانهيار تمتد إليهم يد الإيمان بالزاد الذى يقوى العزائم ويشد القوائم لو تناولوه فى إخلاص ؛ فأولى لهم من هذه الفضيحة ومن هذا الهلع والنفاق طاعةٌ تستسلم لأمر الله عن طمأنينة وتنهض بأمره عن ثقة ، وقول معروف بشىء بنظافة الحس واستقامة القلب وطهارة الضمير ، وأولى لهم إذا عزم الأمر وواجهوا الجهاد أن يصدقوا الله يصدقوه عزيمة ويصدقوه شعوراً فيربط على قلوبهم ، ويشد من عزائمهم ويثبت أقدامهم وييسر المشقة عليهم ، ويكتب لهم إحدى الحسنيين : النجاة والنصر ، أو الاستشهاد والجنة هذا هو الأولى ، وهذا هو الزاد الذى يقدمه الإيمان فيقوى العزائم ويذهب بالفزع ، ويحل محله الثبات والاطمئنان .

وبينما هو يتحدث عنهم يلتفت إليهم مباشرة ليخاطبهم مقرعا مهدداً بسوء العاقبة لو قادهم حالهم هذا إلى النكسة والتولى إلى الكفر ، وخلع ذلك الستار الرقيق من الإسلام ، فيلوح السياق لهم بالنذير والتحذير .. احذروا فإنكم منتهون إلى أن تعودوا إلى الجاهلية التى كنتم فيها تفسدون فى الأرض وتقطعون الأرحام ، كما كان شأنكم قبل الإسلام .

وبعد هذه اللفتة المفزعة المنذرة لهم يعود إلى الحديث عنهم لو انتهوا إلى هذا الذى حذرهم إياه ، أولئك الذين يظلون فى مرضهم ونفاقهم حتى يتولوا عن هذا الأمر الذى دخلوا فيه بظاهرهم ولم يصدقوا الله فيه ولم يستيقنوه ، أولئك الذين لعنوا وطردهم الله وحجبهم عن الهدى فعطلوا السمع وعطلوا البصر وإن كانوا لم يفقدوا أيا منهما ، ولكنهم عطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر ، فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدى هذه الوظيفة .

ويتساءل فى استنكار ألا يتدبرون الكتاب ؟ وتدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير ، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير ، أم أن هناك أقفالا على القلوب تحول بينها وبين القرآن وبينها وبين النور ؟ فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التى لا تسمح بالهواء والنور .

ويمضى السياق فى تصوير حال المنافقين ، وسبب توليهم عن الإيمان بعد إذ شارفوه ، فيتبين أنه تآمرهم مع اليهود، ووعدهم لهم بالطاعة فيما يدبرون ، والتعبير يرسم معنى رجوعهم عن الهدى بعد ما يتبين لهم فى صورة حركة حسية ، حركة الارتداد على الأدبار ، ويكشف ما وراءها

من وسوسة الشيطان وتزيينه وإغرائه ، فإذا ظاهر هذه الحركة وباطنها مكشوفان ومفهومان وهم المنافقون الذين يتخفون ويتسترون .

ثم يذكر السبب الذى جعل للشيطان عليهم هذا السلطان وانتهى بهم إلى الارتداد على الأدبار بعد ما عرفوا الهدى وتبينوه ، واليهود فى المدينة هم أول من كرهوا ما نزل الله لما اختار الله آخر رسله من نسل إبراهيم من غير يهود كرهوا رسالته، حتى إذا هاجر إلى المدينة كرهوا هجرته، التى هددت ما بقى لهم من مركز هناك ؛ ومن ثم كانوا إلبا عليه منذ أول يوم ، وشنوا عليه حرب الدس والمكر والكيد حينما عجزوا عن مناصبته العداء جهرة فى ميادين القتال ، وهؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم قالوا لليهود بأنهم سيطيعونهم فى بعض الأمر والأرجح أن ذلك كان فى الدس والكيد والتآمر على الإسلام ورسول الإسلام .

ويأتى السياق بتعقيب كله تهديد ، فأين يذهب تآمرهم وإسرارهم وماذا يؤثر ، وهو مكشوف لعلم الله ؟ معرض لقوة الله ؟ ثم التهديد السافر بجند الله ،و المتآمرون فى نهاية الحياة ، وهو مشهد مفزع مهين وهم يحتضرون ولا حول لهم ولا قوة ، وهم فى نهاية حياتهم على هذه الأرض ، وفى مستهل حياتهم الأخرى ، هذه الحياة التى تفتح بضرب الوجوه والأدبار فى لحظة الوفاة ، لحظة الضيق والكرب والمخافة ، والأدبار التى ارتدوا عليها من بعد ما تبين لهم الهدى ، فيالها من مأساة .

ويعلن السبب بأنهم هم الذين ارتضوا لأنفسهم هذا المصير واختاروه ، هم الذين عمدوا إلى ما أسخط الله من نفاق ومعصية وتآمر مع أعداء الله وأعداء دينه ورسوله فاتبعوه ، وهم الذين كرهوا رضوان الله فلم يعملوا له ، بل عملوا ما يسخط الله ويغضبه ، فأحبط الله أعمالهم التى كانوا يعجبون بها ويتعاجبون ، فإذا بها تهلك وتضيع .

ولقد كان المنافقون يعتمدون على إتقانهم فن النفاق ، وعلى خفاء أمرهم فى الغالب على المسلمين ، فالقرآن يسفه ظنهم أن هذا الأمر سيظل خافيا ، ويهددهم بكشف حالهم وإظهار أضغانهم وأحقادهم على المسلمين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المنافقون لا يحبون القتال بل يفزعون منه ، والمؤمن يحبه ويفزع إليه .

٢ ـ أولى بالمسلم طاعة تستلزم لأمر الله عن طمأنينة .

٣ ـ من الردة التعاون مع الكافرين على المؤمنين بأى شكل من أشكال التعاون ضد الإسلام والمسلمين .

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي
لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ
الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾
ربع الحزب ٥١ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا
أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا
وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ
وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ
وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ
تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ
لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ
فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن
تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾

معانى الكلمات :

سيماهم : علامات تميزهم .

لحن القول : معناه .

لنبلونكم : لنختبرنكم .

صدوا : أعرضوا .

شاقوا : خالفوا .

سيحبط : سيبطل .

يتركم : ينقصكم .

يحفكم : يجهدكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أنه لابد من الابتلاء لمن دخل فى الإسلام ليكون الإيمان على حقيقته .

٢ ـ أن نعلم حرمة الركون إلى مصالحة الأعداء مع القدرة على قتالهم والتمكن من دفع شرهم.

٣ ـ أن نستشعر عظمة الإنفاق وحرمة البخل .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فى التهديد بكشف أمرهم لرسول الله ﷺ ، فلو شاء الله لكشف لرسوله ﷺ عنهم بذواتهم وأشخاصهم ، حتى لترى أحدهم فتعرفه من ملامحه وكان هذا قبل أن يكشف الله له عن نفر منهم بأسمائهم ـ ومع ذلك فإن لهجتهم ونبرات صوتهم وإمالتهم للقول عن استقامته، وانحراف منطقهم فى خطابك سيدلك على نفاقهم ، والله لا تخفى عليه من الأعمال وبواعثها خافية .

ثم وعد من الله بالابتلاء . ابتلاء الأمة الإسلامية كلها ؛ لينكشف المجاهدون والصابرون ويتميزوا وتصبح أخبارهم معروفة ، ولا يقع الالتباس فى الصفوف ، ولا يبقى مجال لخفاء أمر المنافقين ولا أمر الضعاف والجزعين .

يقول صاحب الظلال : « إن الله ـ جلت حكمته ـ يأخذ البشر بما هو فى طوقهم ، وما هو من طبيعتهم واستعدادهم ، وهم لا يعلمون عن الحقائق المستكنة ما يعلمه ، فلابد لهم من تكشف الحقائق ليدركوها ويعرفوها ويستيقنوها ثم ينتفعوا بها ، والابتلاء بالسراء والضراء ، وبالنعماء والبأساء ، وبالسعة والضيق، وبالفرج والكرب . كلها تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس ، وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها » .

والمراد بعلم الله لما تتكشف عنه النفوس بعد الابتلاء فهو تعلق علمه بها فى حالتها الظاهره التى يراها الناس عليها، ورؤية الناس لها فى صورتها التى تدركها مداركهم هو الذى يؤثر فيهم ويكيف مشاعرهم ، ويوجه حياتهم بوسائلهم الداخلة فى طوقهم ، وهكذا تتم حكمة الله فى الابتلاء .

ويمضى السياق فيذكر قراراً من الله مؤكداً، ووعداً منه واقعاً:أن الذين كفروا ووقفوا فى وجه الحق أن يبلغ إلى الناس ، وصدوا الناس عنه بالقوة أو المال أو الخداع أو أية وسيلة من الوسائل ، وشاقوا الرسول ﷺ فى حياته بإعلان الحرب عليه والمخالفة عن طريقه ، والوقوف فى غير صفه أو بعد وفاته بمحاربة دينه وشريعته ومنهجه ، وهؤلاء أضأل وأضعف من أن يذكروا فى مجال إلحاق ضرر بدين الله سبحانه وتعالى ولا منهجه ولا القائمين على دعوته ، ولن يحدثوا حدثا فى نواميسه وسننه مهما بلغ من قوتهم ومهما قدروا على إيذاء بعض المسلمين فترة من الوقت فإن هذا بلاء وقتى يقع بإذن الله لحكمة يريدها وليست ضرراً حقيقياً لناموس الله وسننه ونهجه وعباده القائمين على نظامه ونهجه ، والعاقبة مقررة بحبوط الأعمال فتنتهى إلى الخيبة والدمار .

وفى ظل هذا المصير المخيف للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول يلتفت إلى الذين آمنوا ليحذرهم ظل هذا المصير ، ويوجههم إلى طاعة الله وطاعة الرسول وألا يقع منهم ما يبطل أعمالهم ويذهب بحسناتهم ، فمصير الذين يشاقون رسول الله ﷺ ويخرجون عن طاعته ، ثم يصرون على هذا ويذهبون من هذه الأرض كافرين عدم المغفرة .

ثم يأتى تحذير يشى بوجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة،وتهن عزائمهم دونه ويرغبون فى السلم والمهادنة ليستريحوا من مشقة الحروب ، وربما كان بعضهم ذوى قرابة فى المشركين ورحم ، أو ذوى مصالح وأموال ، وكان هذا يجنح بهم إلى السلم والمهادنة ، فالنفس البشرية هى هى ، والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن وهذه الخواطر الفطرية بوسائلها ، ولننظر كيف كان القرآن يأخذ النفوس فنحن فى حاجة إلى تحرى خطوات القرآن فى التربية ، والنفوس هى النفوس :

فلماذا الضعف ، وأنتم الأعلون فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ، أنتم الأعلون اعتقادا وتصوراً للحياة ، وأنتم الأعلون ارتباطا وصلة بالعلى الأعلى ، وأنتم الأعلون منهجا وهدفا وغاية ، وأنتم الأعلون شعوراً وخلقا وسلوكا، ثم أنتم الأعلون قوة ومكانا ونصرة، فمعكم القوة

الكبرى ، فلستم وحدكم، إنكم فى صحبة العلى الجبار القادر القهار ، وهو لكم نصير حاضر معكم ، يدافع عنكم ، فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم ؟ وكل ما تبذلون وكل ما تفعلون ، وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم ، لا يضيع منه شىء عليكم، وأعمالكم لن يقطع منها شىء لا يصل إليكم أثرة ونتيجة وجزاؤه .

فعلام يهن ويضعف ويدعوا إلى السلم ، من يقرر الله ـ سبحانه ـ له أنه الأعلى وأنه معه وأنه لن يفقد شيئا من عمله فهو مكرم منصور مأجور ؟

هذه هى اللمسة الأولى ، واللمسة الثانية تهوين من شأن هذه الحياة الدنيا ، فهى لعب ولهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى حين تعاش لذاتها مقطوعة عن منهج الله فيها ، فالإيمان والتقوى فى الحياة الدنيا هو الذى يخرجها عن أن تكون لعبا ولهوا ويطبعها بطابع الجد ، ومع هذا فإن الله لا يسأل الناس أن يبذلوا أموالهم كلها ، فهو أرحم بهم من أن يكلفهم بذلها كلها ، فتضيق صدورهم وتظهر أضغانهم .

وفى النهاية يواجههم بواقع حالهم تجاه دعوتهم إلى البذل فى سبيله ، ويعالج شح النفوس بالمال بالوسائل القرآنية؛ فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور ، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد ، يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون ، فإذا بخلوا بالبذل فإنما يبخلون على أنفسهم ويقللون من رصيدهم ، فالله لا يناله شىء مما يبذلون فهو الغنى ، وما هو فى حاجة إلى ما ينفقون فهم الفقراء ، ثم الكلمة الأخيرة وهى فصل الخطاب : إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومنّ وعطاء ، فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلاً لهذا الفضل ، وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة ، وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهون عليكم كل ما عداه، فإن الله يسترد ما و هب، ويختار غيركم لهذه المنة ممن يقدر فضل الله .

وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان ، وأحس بكرامته على الله ، وما يطيق الحياة وما يطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه ، ويطرد من الكنف وتوصد دونه الأبواب ، ويستبدل به غيره يسمع ويطيع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ .

٢ ـ باب التوبة مفتوح للكافر والعاصى إلى قبيل سكرات الموت ، فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة .

٣ ـ المؤمنون هم الأعلون عقيدة وتصوراً للحياة وارتباطا بالله وبالمنهج الذى يتبعونه ، وهم الأعلون شعوراً وخلقا ، فلا يجوز أن يضعفوا أمام أعدائهم .